الفصل الثالث

بين سوريا والجزائر

الأولى

دمشق بعد اغتيال الحريرى!

فبراير 2005.. كان الشتاء مختلفا عن شتاءات كثيرة سبقته.. فى مكان آخر.. وبشر آخرين.. وظرف آخر.. كنت فى العاصمة السورية.. دمشق الطيبة.. فمثلما يمكننا القول عن بشر بعينهم.. أنهم بشر طيبون.. يمكننا كذلك أن نقول عن أماكن بعينها.. أنها أماكن طيبة.. وصلت دمشق بعد مقتل الرئيس «رفيق الحريرى» بأربعة أيام.. فكان كل شىء يبدو لى مختلفا فى المدينة التى لم أزرها من قبل.. لمسة قلق وتوتر طفيفة على الوجوه.. قد تنبىء بأنها مختلفة.. حتى ولو كانت المرة الأولى التى تراها.. ولكنها بقيت فى عينى مدينة طيبة.. عندما خرجت من مطار دمشق الدولى.. إلى الشارع المتسع الذى يفضى بك إلى قلب المدينة.. انتابنى شعور غامر.. بأن أحدهم ألقى بى داخل فيلم عربى «أبيض وأسود».. من تلك التى قدمتها مصر فى الستينيات.. ورأيتها مرارا وتكرارا.. بالضبط كانت دمشق كذلك.. القاهرة فى الستينيات من القرن الماضى.. بكل بهائها.. وبساطتها.. وشوارعها المتربة..

وبشرها الطيبون.. الذين يضفون من روحهم.. فتصير أماكنهم التى يتنفسون فيها طيبة.. هكذا رأيت دمشق.. بناية الإذاعة والتليفزيون.. التى تضم داخل جدرانها كل ما له علاقة بالعمل الصحفى والإعلامى.. محلات الفول والطعمية.. التى لا تشبه إطلاقا تلك التى فى القاهرة سوى فى الشكل.. مكتبة «الأسد» فى قلب العاصمة.. سوق «الحميدية».. والمسجد الأموى.. ومطاعم البلدة القديمة.. مدينة الياسمين.. منزل السفير الأمريكى.. وعشرات الآلاف من السوريين العائدين – قسرا – من لبنان.. كل العرقيات.. الإيرانيين.. والأكراد.. والأتراك.. والشركس.. وكان مرافقى طوال 10 أيام أمضيتها هناك.. أحد هؤلاء ذوو الأصل الشركسى.. الصحفى «جنبلات شكاى»!

1

جئت دمشق فى مهمة يمكن تسميها «دولية».. كنت أعمل وقتها من القاهرة.. مع منظمة أهلية كندية «معهد الإعلام والسياسة والمجتمع المدنى».. فى مشروع تموله الوكالة الكندية للتنمية الدولة.. عن الإعلام فى الدول العربية.. مصر وسوريا والأردن وفلسطين – قطاع غزة والضفة الغربية – وتونس والجزائر والمغرب.. المشروع بدأ بدراسة عن وضع الإعلام فى كل هذه الدول.. يختتم بمائدة مستديرة.. يشارك فيها إعلاميون من كل هذه الدول.. وكانت دمشق هى المحطة الثانية.. بعد القاهرة..

كان توقيت الزيارة صعبا – وقد تم تحديده مسبقا – فقد كانت العاصمة كلها مستنفرة بعد اغتيال الرئيس «رفيق الحريرى».. ذاك الاستنفار العميق.. الذى تستشعره فى الشارع.. لدى الباعة الجائلين.. والمواطنين البسطاء.. لم

أر رجل أمن واحد طوال مدة إقامتى بالعاصمة.. خارج الحدود المتعارف عليها.. كل شىء كان يبدو طبيعيا للنظرة الأولى.. ما أعقب اغتيال الحريرى كان هزة حقيقية فى الشارع السورى.. ممثلا فى العاصمة.. عشرات الآلاف من العائدين.. الذين فقدوا وظائفهم وسكنهم ومتاعم ومستقبلهم إن جاز القول.. ورحلوا بعد أيام من الحدث الذى زلزل بيروت.. هؤلاء العائدون.. برواياتهم.. ومشاهداتهم.. وصدمتهم.. أربكوا الإدارة السورية.. وكان مرافقى «جنبلاط» أحد هؤلاء الذين أصاب الارتباك حياتهم.. كان مراسلا لعدة صحف خليجية ولبنانية.. وكان مستشارا لهيئة الإذاعة البريطانية «بى بى سى» فى دمشق.. كل معاملاته المالية والبنكية فى أحد بنوك بيروت.. قال لى: لا يمكن أن تتورط سوريا فى عمل كهذا.. كان يبدو مقتنعا بما يقول.. لكننى شعرت وقتها أنه استنتاج يحمل قدرا من الوطنية.. أكثر منه تحليلا منطقيا.. ليس لشعور بتورط سوريا.. لكن لأن أى استنتاج وقتها كان سابقا لوقته.. متابعة السوريين الدقيقة لتبعات الحدث لحظة بلحظة.. لم تكن لتوقف عجلة حياتهم عن الدوران.. وإن كان جزءا ما من تفكيرهم.. منصرف دون تعمد لهذا الأمر.. حياتهم تدور دورتها الطبيعية فى كالمرجل.. تغلى فوقه تفاعلات أجناس عدة.. تحيا ذات الظروف.. فى نفس المكان.. ولكنهم أدركوا لأول مرة.. أن لبنان.. ليس وطنا لهم.. وليس جزءا من وطنهم.. وأنهم كانوا غافلين!!

2

حبرون.. بت رامون.. ديمترياس.. درة الشرق.. شامة الدنيا.. دامسكا.. الفيحاء.. تيماشكى.. داماس.. ديماسكوس.. الدار المسقية.. مدينة

الياسمين.. الشام.. كلها أسماء للمدينة القديمة.. التى يذكر أن عمرها حوالى تسعة آلاف سنة قبل الميلاد.. طبقا لاكتشافات وحفريات «تل الرماد».. فقد كانت عاصمة لحضارات فى حقب تاريخية مختلفة.. وتقول روايات أن «دمشق» مشتقة من كلمة تدل على الإسراع.. فقد تم بناؤها بسرعة فى زمن قديم.. بينما تقول أخرى أنها سميت «شام» نسبة إلى سام بن نوح.. ألواح «تحتمس الثالث» فرعون مصر.. أسمتها «تيماسك».. وفى ألواح تل العمارنة كانت «تيماشكى».. وفى النصوص الآشورية «دا ماش قا».. وفى الآرامية «دارميسك» .. وورد ذكرها فى الحضارات البابلية والفينيقية والرومانية واليونانية والفارسية.. وذكر العهد الجديد اسم «الشارع المستقيم».. وهو المكان الذى عاش فيه القديس بولس الدمشقى.. أو بولس الرسول الذي انطلق من دمشق مبشرا بالديانة المسيحية فى أوروبا.. وحيث دفن بنيت الفاتيكان..

سكانها الذين كان عددهم 5 مليون نسمة.. هم خليط من العرب والأكراد الأتراك والأرمن والآشوريين والشركس.. وهى مدينة تشكل قلب محافظة «دمشق».. التى تحوطها بساتين غوطة دمشق وجبل قاسيون وربوة دمشق.. هذا الخليط من البشر يفاجئك.. باحتفاظه بطقوسه ولغته وملابسه وعاداته اليومية.. وأسواق المدينة الشعبية.. أكبر فاترينة عرض ترى فيها هذا الاختلاف والتنوع العرقى البشرى.. ففى سوق الحميدية.. كان مدهشا بالنسبة لى سماع حوارات باللغة الفارسية أثناء التجول.. بين الباعة والمشترين.. فالمقيمون من هذه الجنسيات فى المدينة ليسوا باعة يبحثون عن الرزق.. بل مواطنون ناطقون بالفارسية.. إيرانيون مقيمون بسوريا.. وكان مثيرا أيضا أن أرى أزياء تلك الأعراق.. بألوانها المختلفة فى هذا السوق.. أما السوق نفسه.. فقد كان طبعة ثانية من سوق «الغورية» فى المنطقة التى تحمل نفس الاسم فى مصر.. لم يكن أحدهما مستنسخًا من الآخر.. ولا كان تقليدا له.. ولكن كليهما كان نتاجًا لفترة زمنية واحدة.. بسطت جناحيها على المنطقتين

فى نفس الوقت.. كانا نتاج الحكم المملوكى.. الذى خلف حركة عمرانية.. برزت فى المساجد والمدارس والحمامات الشعبية والأسواق.. والفارق بين سوق «الحميدية».. وسوق «الغورية».. هو أن الأول صغير.. هادىء نسبيا.. مسقوف حديثا.. غير مزدحم.. هو نفس الفارق بين سورية ومصر!! مصر وطن يتحرك بسرعة.. رغم أنه قد يبدو العكس.. وسوريا وطن يتحرك بقدر مكانه ومحيطه.. ومرايا البلدين تعكس ذلك بجلاء.. وأكثر المرايا وضوحا.. مرايا الإعلام على تعدده.. فالإعلام السورى يقدم عنوانا على حالة الحراك فى وطنه بلا رتوش!!

3

مبنى وزارة الإعلام.. الذى تتبعه كل وسائل الإعلام.. المرئية والمسموعة والمكتوبة.. المواجه للنصب التذكارى الشهير فى قلب العاصمة.. والدلالة التى كانت من اختيار المكان.. باعتبار الإعلام وسيلة الدولة للنضال.. لم يعد ملائما لكل متغيرات العصر.. شكل البناية من الخارج.. لا يوحى بما تحويه من الداخل.. بمعداتها المتطورة.. وصحفييها الذين يملكون قدرات.. لم تفعل بعد.. بمعهدها لتعليم الطباعة.. ومعهدها لتدريب الإعلاميين.. مكان يضيق بساكنيه.. «طالب قاضى أمين» معاون وزير الإعلام وقتها.. بما يوازى وكيل وزارة فى مصر.. كان فخورا بمنح تراخيص لإذاعات خاصة على موجة الإف إم.. وبالسعى لافتتاح مراكز صحفية لوكالة الأنباء السورية فى: القاهرة ولندن وطهران.. وبقانون 2001 للمطبوعات تم منح تراخيص لأكثر من 107 مطبوعة.. وبدعم الصحافة الخاصة بالإعلانات وتسهيل الطباعة.. كان سعيدا بكل هذا.. لكنه لم يقل تفسيرا لدعم الصحف الحكومية الثلاثة: تشرين والثورة والبعث.. بالطباعة والورق مجانا!! فهذا فكر لم يعد ملائما للعصر!!

كانت البناية التى ترددت عليها كثيرا.. مستنفرة فى فترة أزمة اغتيال «الحريرى».. وكانت الفترة التى سبقتها.. مليئة بالتلويحات الأمريكية.. صباح مساء.. بضرب سوريا.. وحصار سوريا.. وعقاب سوريا.. وهى نغمة لم يصدقها الشعب السورى.. أو لنقل.. لم يقم لها وزنا.. فقد كان منزل السفير الأمريكى فى قلب العاصمة.. المطل على شارع رئيسى.. بلا أى معالم أمنية.. تدل على وجود شخصية دبلوماسية مهمة جدا.. عبرت أمام باب منزله عشرات المرات.. مندهشة.. ومقارنة بين هذا المنزل.. ومثيله فى القاهرة.. والفارق كبير جدا! لكن العبارة الشهيرة للسفير الأمريكى نفسه.. تفسر كثيرا.. فقد قال: «دمشق هى أكثر العواصم أمنا بالنسبة لسفارة بلدى!».. الرجل كان محقا.. فدمشق عاصمة أمنية بالدرجة الأولى.. دون أن تلمح فيها طيفا لرجل أمن.. لا باللباس المعروف.. ولا بالعيون التى تشى! ووسط كل هذا.. كان معهد تدريب الإعلاميين.. الذى أسس عام 1959.. يعقد ولعدة أشهر سابقة.. ومثلها قادمة.. دورات تدريبية للصحفيين.. يقدمها المركز الدولى للصحفيين.. وهو منظمة غير حكومية أمريكية.. بتمويل من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية!!

4

العشاء فى ليل «دمشق».. فى البلدة القديمة.. بمطاعمها المميزة.. كان شيئا لا مثيل له إلا فى هذه البقعة من العالم.. فقد كانت هذه المطاعم التى تتكون من دور أرضى.. ودور واحد فقط يعلوه.. هى بيوت قديمة.. صدرت قرارات بإزالة أدوارها العليا.. فقرر السوريون تحويلها لمشروعات تجارية..

وليس أكثر من الطعام.. الذى يبرعون فيه.. مشروع مربح.. إحتفظت البنايات بشكلها التقليدى كمنازل واسعة.. فالبيت الدمشقى.. أو البيت العربى كما يسميه السوريون.. ذا غرف موزعة فى طابقين.. تحيطه فسحة مكشوفة.. مزينة بالأزهار والنباتات ونوافير المياه.. بوابات عالية مستديرة.. بلاطات حجرية قديمة.. جرى ترميمها والاعتناء بها.. ثم أضيف لكل هذا فرق التخت الشرقى البسيطة.. عود ورق وكمان وطبلة وغناء.. ورائحة البخور الإيرانى الشهير.. مختلطا مع رائحة الياسمين.. الذى تشتهر به دمشق.. وأكثر الأحاديث المهمة.. خلال تلك الأيام.. دارت على عشاء فى هذه المطاعم الرائعة.. عرفت الأزمة التى كادت أن تنشب.. بين نقيب الصحفيين السوريين و «جانبلات شكاى».. فقد كان الأخير يسعى لتأسيس رابطة للمراسلين الصحفيين.. وقف لها الأول بضراوة.. ثم ما لبث أن تراجع.. عندما استخدم أحدهم تسجيلا بصوت النقيب.. كان فيه ما لا يسر.. لا النقيب.. ولا من تحدث بحقهم! شكوك البعض بأسماء سورية بعينها.. فى اغتيال «الحريرى».. الحديث بجرأة وإبداء الرأى يكون مع الغرباء.. وهو أمر أدهشنى.. وأوجعنى فى ذات الوقت.. ما أقسى أن تفقد الشعور بالأمان فى وطنك.. فتأتنس بالغرباء.. مهما كانوا!

تلك المطاعم كانت بقايا للبيوتات الدمشقية المعروفة.. بيت خالد العظم.. وبيت أحمد السباعى.. والنابلسى.. والقوتلى.. والمعلم.. وهى بيوتات سحرت الرحالة الذين تدفقوا على الشرق.. كما سحرتهم أيضا.. الشوارع والحارات الضيقة فى المدينة القديمة.. ذات البيوت المتقاربة.. والشوارع المرصوفة بالحجارة.. تشعر وأنت تسير عبر طرقاتها.. أنك دخلت بابا قد فتح

للتو على التاريخ.. أما جبل «قاسيون» حيث تنتشر تلك المطاعم والمقاهى.. مطلة على المدينة القديمة.. يشبه كثيرا جبل المقطم فى مصر.. إلا أنه أقل مساحة وارتفاعا.. لكنه أكثر بهاء فليس به أى بنايات للسكن.. أو هكذا كان فى عام 2005.. فأنا أتوقع أن يكون قد بنى عليه للسكن فى السنوات الأربع الماضية.. وأنه قد حدث تسرب للمياه داخل حجارته.. وأن بعض حوافه قد انهارت على المساكن.. وأن هناك تحذيرات بانهيارات جديدة! توقعى هذا لأن أحد الصحفيين قال لى: نحن نسير على خطى مصر فى كل المراحل.. فى السياسة والاقتصاد.. حتى أننا نقدم على ما أقدمت عليه من أخطاء أيضا! وأنت على جبل «قاسيون».. فأنت تحتضن العاصمة كلها.. بأنوارها وأشجارها.. ورائحة الياسمين.. بيوتها القديمة الطيبة!

5

الياسمين الدمشقى.. هو شىء مختلف عن الياسمين من أى فصيلة أخرى.. وهو جزء من تاريخ دمشق.. اهتم سكانها بزراعته داخل بيوتهم.. وفى شرفاتهم.. ومازال الدمشقيون يحتفظون بعشهم للياسمين.. فتجده في الأفنية الداخلية للمنازل.. وفى شكل أقواس على الأبواب.. وكاسيا تماما الأعمدة جوانب الحارات القديمة.. لا تمييز بين مستوى منزل وآخر.. بل فى الكثير من البنايات غير السكنية أيضا.. وفى المنطقة القديمة من دمشق.. حيث البرلمان السورى.. ذهبت للقائه.. «حنين نمر» عضو مجلس الشعب.. ومدير تحرير صحيفة النور.. تشم الرائحة القوية النفاذة للياسمين الدمشقى.. مصفوفا فى أوان صغيرة للزرع.. ومعلقة بطريقة ما على النافذة من الخارج.. بحيث تشم رائحتها فقط .. ويراها العابرون فى الخارج.. قال لى أنهم يدركون

مأساتهم.. وأنه فى الفترة الماضية كانت السياسة الخارجية.. هى المرتكز لتوجهات الدولة.. وبالتالى توارى المجتمع المدنى كله.. وهنا الحديث عن «إعلام حر».. وتعددية.. أمر على سبيل اللغو والمزاح.. وكالة الأنباء السورية كانت تتلقى الأخبار وتقوم بصياغتها وتوزيعها بنفس الشكل والمضمون على كل الصحف.. وتلك مجبرة بالطبع على النقل من الوكالة.. الوضع يتغير الآن.. فتنشأ حركات وأحزاب لا تتمتع بالشرعية.. لأنه ليس هناك قانون لتأسيس الأحزاب.. عام 1950 تعطل القانون بتولى حزب «البعث».. ثم الجبهة الوطنية التقدمية المكونة من 8 أحزاب يقودها «البعث».. شعبيتها الوحيدة فيما يصدر عنها..

المنطقة المحيطة بمبنى مجلس الشعب.. تشبه كثيرا منطقة الأزبكية وميدان العتبة قديما.. الكثير من البشر.. الكثير من السيارات.. الكثير من الضجيج.. أعضاء البرلمان.. فى كل مكان تقريبا.. يتمتعون بسمت واحد.. وكأنما قالب يجرى صبهم جميعا به.. بعد نجاحهم فى الانتخابات.. ثم تصديرهم وصفهم على باب المجلس.. منذ اليوم الأولى لبداية الدورة.. يحتفظون بهذا السمت حتى يوم مغادرتهم المجلس.. لأى سبب من الأسباب!

6

أكثر من 200 مسجد وجامع.. والعديد من الكنائس.. جامع التكية السليمانية.. الذي بناه السلطان العثمانى سليم الأول عام 1516.. ومسجد السنانية.. كنيسة حنانيا والمقدسات والمقامات الدينية.. فى المدينة القديمة.. ولكن يبقى الجامع الأموى.. ذو مكانة خاصة.. بنى فى عهد الخليفة الوليد بن

عبد الملك.. فى نفس مكان معهد «جوبيتر الدمشقى»..فناء خارجى فسيح.. يأخذك إلى قاعة كبيرة للصلاة.. بها ثلاثة أروقة متوازية.. تفصل بينها أقواس متناسقة.. مرفوعة على أعمدة أثرية من الرخام.. تعود إلى العصور السابقة للعصر الأموى.. له ثلاث مآذن لثلاثة عصور مختلفة.. «العروس» وتتوسط الجدار الشمالى.. وهى أقدم مئذنة فى تاريخ الإسلام.. ومئذنة «عيسى».. نسبة للسيد المسيح.. فى الناحية الشرقية.. ومئذنة «قايتباى» فى الناحية الغربية.. هذا المسجد الذى يخيل لك أنه يشبه غيره من المساجد.. للوهلة الأولى.. تنبهر بفكرة تفرده فى كل التفاصيل.. عندما تجرى عينا مدققة حولك.. وبالقرب منه يرقد الرجل الذى اختلفت عليه روايات التاريخ صلاح الدين الأيوبى.. قد يبدو لك أن السوريين غير مكترثين بقيمة أشيائهم القديمة تلك.. فلا تجد الكثير من البشر حول هذه الأماكن التاريخية.. ولا تجد طقوسا خاصة تشى باحتفاء ما بهذه الأماكن.. المشهد الذى يتكرر عن بوابة كل مسجد.. أعداد غفيرة من النساء المحجبات.. ينتظرن بعضهن البعض على الأبواب.. وعندما سألت قالوا لى: موعد الدرس!

7

حجاب النساء فى دمشق.. ليس كمثيله فى القاهرة.. فحجاب النساء.. بالطو طويل.. صيفا وشتاء.. يتغير نوع القماش بحسب الفصل المناخى.. وغطاء للرأس تدخل أطرافه تحت «ياقة» البالطو.. فلا تستجب لعبث تيارات الهواء.. ألوان البالطو بين: الرمادى والبنى والبيج والزيتى.. لكن لم أر منه الأسود.. كنت أبحث فى دمشق على ما يشبه الأردية الخليجية السوداء..

التى بدت نشازا فى شوارع مصر.. وكنت أبحث عن محاولات الدعوة.. بين النساء.. فى وسائل النقل العام.. أو فى أماكن الانتظار المختلفة.. انتبهت لفكرة أن الحجاب هنا.. حتى لو كان بشكله الظاهرى القاسى هذا.. لا يعنى.. كما المعنى فى دول أخرى.. أنه لا حياة.. وأن العمل كله من أجل الآخرة.. فقد كانت المطاعم تعج بأعداد من هؤلاء المحجبات.. وحدهن أو مع أسرهن.. وأن كثيرا منهن يشربن «الشيشة» وهن بصحبة الآباء والإخوة! فهى ليست أمرا معيبا فى دمشق.. ولا سماع الموسيقى محرما من قبل المحجبات.. ولا الكثير من الأشياء التى تحرمها النساء فى القاهرة عن جهل

8

سوريا تتحرك أسرع من إدارتها.. تلبستنى الفكرة من كل ما شاهدته فى دمشق.. السوريون يعبرون سريعا إلى العالم حولهم.. أكثر من قدرة الحكومة على اللحاق بهم.. شبكة من 10 أحزاب سياسية جديدة تعرفت على بعضها عبر موقع إكترونى.. 20 صحيفة يومية تنقل ما يبثه من أخبار.. مؤسسه بعثى قديم.. أيمن عبد النور.. «كلنا شركاء».. أراد به أن يقول أن التغيير أصبح واجبا لا محالة.. وأن مبدأ الحزب الواحد.. والفكر الواحد قد انتهى بحق.. بدأ فى أول مايو 2003.. يوم سقوط بغداد.. وكان هذا مؤشرا.. بأن وضعا جديدا قد بدأ فى المنطقة كلها.. تركت دمشق وكان يقول لى: سوف أغلق فى غضون أيام.. الوضع المادى صعب والضغوط كثيرة.. لكنى لن أنهزم بسهولة.. بقيت على اتصال به لمدة طويلة بعدها.. أغلق موقعه.. ثم أعيد افتتاحه.. ثم أغلق مرة ثانية.. ولا أدرى ماذا حدث معه بعدها.. لكن الإدارات المحدودة تحب ممارسة اللعبة ذاتها.. مع الشخص ذاته مرات عديدة.. دون أن تعى أن فكر الشخص وآلياته تغيرت.. وأن لعبتها صارت رديئة!!

الثانية

فى الجزائر.. ليالى البهجة

على أرض الدم والدموع!!

مايو 2009.. على بعد عشرات الآلاف من الأقدام.. عن سطح كوكبنا الجميل.. مغادرة القاهرة إلى الجزائر.. تزدحم فى رأسى مئات الأفكار.. حول وطن وبشر أعرف عنهم – سماعا – الكثير من التفاصيل.. وحول فعالية كنت أحاول تخمين مجرياتها.. مهرجان المسرح الوطنى.. وفى مطار الجزائر كان استقبالى أكثر من توقعى.. حفاوة بالغة.. حارة.. ليس لأنى صحفية.. ولا لكونى أمثل أهم صحيفة فى الشرق الأوسط.. ولكن لكونى مصرية.. فى وطن مازال يعشق مصر والمصريين.. وفى العاصمة الجزائرية.. كانت الأماكن.. ميناء الجزائر حيث تطل نافذة غرفتى فى فندق أمضيت فيه 10 أيام.. وسوق منطقة وسط المدينة.. ومقام الشهيد.. ومبنى وزارة الإعلام أعلى تلة تطل على

العاصمة العتيقة.. متدرجة الخضرة والبنايات البيضاء.. المسرح الوطنى.. أو مسرح محيى الدين باشترزى.. وكان البشر.. بائع كروت المحمول فى المحل المواجه للفندق.. الذى اعتدت المرور عليه يوميا للشراء.. وباعة السوق.. والشيخ محمد بن قطاف.. مدير المسرح الوطنى.. الصديق العزيز.. الكاتب.. الروائى.. المسرحى.. رئيس تحرير صحيفة الجزائر نيوز.. إحميدة عياشى.. د.إبراهيم نوال عميد معهد الفنون المسرحية ببرج كيفان.. الصديق العزيز.. الذى لم أره منذ 7 سنوات.. المسرحى العراقى عزيز خيون.. نبيل السائق الذى صحبنى طوال مدة إقامتى.. الجزائر.. تلك المدينة المبهجة.. التى تنضح شجنا.. قديما وحديثا.. تلك المدينة التى تشى ببقايا دموع.. وبقايا ألم.. وتنبض بالكثير من الأمل.. والحياة.. وتحرض على إطلاق المشاعر تجاه الآخرين طوال الوقت.. وهكذا رأيت الجزائر عام 2009!

1

خيط رفيع يربط – فى هذه العاصمة المتفردة – بين النضال والفنون.. ليس وليدا لهذه الأيام.. ولا لسنوات الإرهاب.. أو «العشرية السوداء».. كما يسمونها.. إنما هو خيط قديم منذ سنوات الاستعمار الفرنسى.. الذى لا يمل الجزائريون من التذكير به.. حتى هؤلاء الذين لم تتجاوز أعمارهم العشرين عاما.. هذا الخيط بدأ فى نوفمبر 1957.. كان بطله أبو المسرح الجزائرى.. «مصطفى كاتب»..

عندما كلفته جبهة التحرير الوطنى.. بتأسيس الفرقة الفنية التى حملت اسم الجبهة.ومتخفيا غادر فرنسا إلى تونس بالتنسيق والتنفيذ مع جبهة

التحرير.. مقدما أول عروضه عام 1958 «نحو النور» بالمسرح البلدى لمدينة تونس.. ثم متجولا فى باقى المدن التونسية.. ثم ليبيا والمغرب.. واختتمت الفرقة العام فى ديسمبر بجولة استمرت 20 يوما فى يوغوسلافيا - كرواتيا وصربيا وماسيدونيا والبوسنة - وهو أول خروج إلى العالم.. فى ظرف استثنائى استدعى هذا الخروج.. وفى أكتوبر عام 1960 ولت تلك الفرقة وجهها باتجاه الشرق.. فتجولت فى الصين - بيكين و شانغهاى وفون سين -.. مختتمة العام بالعرض فى موسكو ثم لينينجراد.. وفى عام 1961 عادت إلى الوطن العربى.. فقدمت 27 عرضا فى العراق.. و5 عروض فى مصر.. وفى 20 مارس 1962 عادت نهائيا إلى الحضن.. الجزائر.. قبيل وقف إطلاق النار بساعات.. الجزائريون عندما يذكرون «مصطفى كاتب».. لا يذكرونه كمسرحى عريق.. بل كمناضل بفنه فى الثورة أيضا.. كان ممثلا ومسئولا عن الفرقة الفنية لجبهة التحرير الوطنى.. ثم فيما بعد مؤسسا للمسرح الوطنى.. ولد فى 8 يوليو 1920 بولاية «سوق أهراس».. فى الشرق الجزائرى.. برفقة المسرحى المخضرم محيى الدين باشترزى.. وكان واحدا من الجيل الثانى للمسرحيين الجزائريين الذى أفرزته هذه الفترة.. ولم تمض سوى 10 سنوات حتى احتلا الصف الأول.. أسس فرقة المسرح الجزائرى عام 1947 وهو فى العشرين من عمره.. مستقرة فى فرنسا تقدم عروضها للجمهور الجزائرى هناك.. فكانت تلك الأعمال.. «لوحات استعمارية».. «الحرية».. «أولاد القصبة».. سببا فى منع الإدارة الاستعمارية الفرنسية لها عام 1956.. وفى عام 1963 أشرف «كاتب» على المسرح الوطنى وطوال عشر سنوات.. أنجز 13 مسرحية..

2

المسرح الوطنى الجزائرى.. أو مسرح محيى الدين باشترزى.. الذى يحتل واجهة ساحة الأمير عبد القادر فى العاصمة.. مواجها للميناء.. ومحاطا بالعديد من المقاهى المتواضعة.. التى يرتادها المثقفون والمسرحيون والمهتمون.. محيى الدين باشترزى واحدا من فنانى الثلاثينيات.. مارس الإنشاد الدينى فى شبابه ثم تحول إلى الغناء فمدرسا للموسيقى.. ثم اتجه إلى المسرح فقدم بعض مسرحيات موليير باللهجة الدارجة الجزائرية.. باشترزى اسم له وقع خاص عن كل الجزائريين.. وصار له وقع خاص أيضا عند كل حضور.. المهرجان الوطنى للمسرح المحترف.. الذى يقام فى العاصمة منذ 4 أعوام.. فتلك الرحلة اليومية المتكررة فى الثامنة مساء.. المسافة بين الفندق «سفير» المجاور لمقر ولاية – محافظة – الجزائر.. والمسرح.. تلك الرحلة التى غزلت علاقة بسيطة.. عميقة.. على مدار 10 أيام.. بينى وبين الباعة فى الأكشاك.. وعساكر الشرطة الذين يتواجدون ليل نهار فى هذه المنطقة.. علاقة مفرداتها أنى مصرية.. وأنهم يعشقون مصر.. تلك العلاقة الإنسانية التى يفتقدها المصريون.. عند زيارة دول أخرى.. خليجية أو أجنبية!

فى مسرح باشترزى.. التقيتهم جميعا.. إحميدة عياشى.. ومحمد بن قطاف.. ود.إبراهيم نوال.. وبن براهيم فتح النور.. عبدة المسرح وعاشقوه.. وجمهور المسرح الذى يقدسه.. عروضا محلية.. انتظم جمهور العاصمة.. والجمهور القادم من ولايات شتى.. لمتابعة فرق تقدم عروضها باللغة العربية الفصحى.. حتى الأمازيغية منها.. وتلك كانت المفارقة التى نبهنى لها الصديق إحميدة

عياشى.. فهو حدث.. أن تقدم فرقا أمازيغية عروضا بالعربية الفصحى.. خطر ببالى ما أشار له أستاذنا الجليل الدكتور «على الراعى» فى كتابه «المسرح العربى» فى فصل خاص بالمسرح الجزائرى.. انصراف الجمهور الجزائرى عن عروض اللغة الفصحى.. فعندما زارت فرقة جورج أبيض الجزائر عام 1921 ضمن جولة قامت بها فى الشمال الإفريقى.. لم تلق عروضها القبول فى الجزائر.. فصفوة المثقفين الجزائريين كانوا يتوجهون بفكرهم وأرواحهم نحو فرنسا.. بينما لم يجد الشعب الجزائرى فى مسرحيات الفصحى كثيرا من المتعة.. الفارق بين ما كتبه د.الراعى وما شاهدته عام 2009 كان كبيرا.. 88 عاما حدثت فيها الكثير من التحولات على كل الأصعدة.. صار التحدى والرهان الآن.. العربية الفصحى.. التى تعلمها د.براهيم نوال عميد معهد الفنون المسرحية.. فى تسعينيات القرن الماضى.. بعد أن تجاوز الأربعين من عمره!

3

مثل قطعة الموزاييك.. العلاقة بين الولايات.. والاتجاهات.. واللهجات فى الجزائر.. متشابكة معقدة.. سهلة التواجد فى ذات الوقت.. فى السابق وحدث هذا الموزاييك الثورة.. والآن يوحد التحدى القادم.. المستقبل.. وما الحديث عن اللغة العربية إلا أحد دلالات هذا التحدى.. الممثل سيد على كويرات.. الموسيقى وقارع الدربكة دباح على.. المطرب الشعبى أحسن العربى.. الملحن والموسيقى وعازف البيانو والأوكورديون مصطفى سحنون.. رفاق درب مصطفى كاتب.. إضراب الطلبة عام 1956.. تركوا الدراسة متجهين للجبل.. ثورات الرئيس الجزائرى هوارى بومدين.. الثورة الزراعية.. ثورة

التعريب.. د.إبرهيم نوال.. وقراره بتعلم العربية.. هو وغيره.. دلالة أخرى على هذا التحدى.. شعر بأن الأمر بات واجبا لخلق التواصل.. بحث عن كل الطرق لتعلمها.. الآن هو يحتفى باللغة العربية.. يستمتع بسماعها وإيقاعها ودقتها ويعى أنه كان قبلها فقيرا جدا – كما يقول – عندما يقرأ لخليل جبران وأدونيس عقل وأى أديب عربى يشعر بانتمائه لهذه الثقافة الواسعة الشاسعة.. يفخر بأنه أمازيغى ينتسب للغة العربية.. فهى الوظيفة الحية للشخصية.. وهى مهددة لأننا – كما يقول – لا ننتج فكرا عربيا.. للأسف ليس لدينا إنتاج عربى يحمى هذه اللغة.. لا بد أن تكون اللغة وسيلة للتواصل بين المبتكر والمستخدم..

د.نوال حصل على ماجستير فى الفنون الجميلة.. وكان بحثه عن مسرح الثورة فى الجزائر.. ناقش «مصطفى كاتب» حول وضعية المسرح الجزائرى.. سافر فحصل على الدكتوراه من روسيا.. وعاد ظانا من نفسه ناقدا «جهبذا».. بحسب تعبيره.. لكن بقيت كلمات «كاتب» تدق كالجرس فى أذنيه.. «الشعب الجزائرى هو الذى دفع ثمن بعثتك».. وهنا صار منشطا ووسيطا ثقافيا فى المسرح.. الوساطة الثقافية همزة وصل بين الناس.. وهمزة الوصل هى التى تؤدى للآخر.. تستمع له وتتيح المجال للحوار.. التنشيط ليس فقط أن تعمل بل أن تسمع للناس وتمنحهم وسائل التعبير.. كاتب نفسه غادر المسرح الوطنى الجزائرى عام 1972.. لمهمة أخرى.. أن يعمل وسيطا مسرحيا!

4

على قمة عالية.. شاهدت العاصمة كلها.. من على مقام الشهيد.. رأيت الجزائر.. بجبالها الخضراء.. وطرقاتها المتعرجة.. الملتوية.. بصمت طرقاتها بعد الثامنة مساء.. كنت قادمة من وطنى محملة ببضعة أخبار متناثرة.. فى صحف متعددة.. حول تجدد أحداث الإرهاب فى الجزائر.. صمت الطرقات مساء.. وخلوها من المارة.. حرك داخلى قلقا مما قرأت قبل المجىء.. وكان من الصعب تخيل تلك الأحداث.. التى يسمونها فى الجزائر «العشرية السوداء».. قال لى الشيخ محمد بن قطاف: أن ما ترينه الآن هو الوضع الطبيعى جدا.. فثقافة التجول فى الشوارع.. ليست ثقافة الجزائرى.. نمط مختلف من الحياة.. أوروبى الملامح فى ظاهره.. كل المحال التجارية تغلق فى الثامنة مساء على الأكثر.. فتصبح حياة الجزائريين داخل الأماكن المغلقة.. فى المطاعم.. فى البيوت.. لم يكن هذا هو الحال وقت السنوات السوداء.. كنت حتى آتى إلى المسرح.. لا بد أن أتحسس تأمين الطريق عبر أقرانى.. كان الفن مستهدفا.. كما الكتابة.. كان التنوير هو الهدف بكل صوره.. فأظلمت الجزائر سنوات طوال.. هذه المدينة المبهجة الآن.. تحاول استدراج ما فاتها طوال هذه السنوات.. وهذا الشعب الذى قاوم استعمارا مختلفا.. لهو شعب جبار قادر على هذا.. ففرنسا لم تستعمر الأرض كما حدث مع مصر أو بلاد الشام أو أى مكان استعمره الانجليز من قبل.. فرنسا استعمرت البشر.. أرادت محو الهوية.. دينا ولغة.. أرادت أن تجعل من الجزائر جزيرة فرنسية.. طوال قرن واثنين وثلاثين عاما.. أطول مدة استعمارية فى العالم العربى.. أصبحنا فرنسيين قسرا.. ولكن لم تكن تمض أربعون عاما دون أن يثور الشعب

الجزائرى.. مصر استعمرت 70 عاما لكن كان لها جمعياتها ونواديها ومثقفيها وهيئاتها وأحزابها.. وملكها.. نحن لا.. كانت هناك شواطىء ممنوعة للكلاب والعرب.. الشعب كله هرب إلى الصحراء.. وعندما خرجت فرنسا كان معظم الجزائريين أميين.. ممنوع أن تقرأ لغتك.. وفى ظرف 50 عاما تغير كل شىء تماما.. استرجعنا أنفسنا وشخصيتنا.. الآن كل شىء معرب.. ليس لدينا مشكلة مع الفرانكفونية.. فنتكلم الفرنسية.. فهى لغة مميزة.. لكننا لن نكف لا نحن ولا أبناؤنا ولا أحفادنا.. ولا كل الأجيال القادمة عن النظر للخلف.. فمن هذه النظرة العميقة لما فى الخلف.. نكون فى المستقبل كما نريد أن نكون..

5

مقام الشهيد.. حيث الصعود لأعلى.. وحيث الوقوف على الأعلى.. وحيث الذاكرة الحية عبر هذا النصب التذكارى.. لتاريخ شعب يحب الحياة.. مقام الشهيد.. بما حوله من بنايات.. مبنى الإذاعة والتليفزيون الجزائرى.. والبيوتات البيضاء النظيفة.. التى يرونها - الجزائريون - إسكانا للفقراء.. وحيث مساحات الخضرة.. ومساحات الجبال الصفراء.. مقام الشهيد.. حيث يحكى الجميع.. كبارا وصغارا.. عن الثورة الجزائرية الحية فى العقول والقلوب.. فلكل منهم حكاية إنسانية فريدة.. د.براهيم نوال.. يحكى عن والده.. الذى سافر إلى فرنسا فى الأربعينيات من القرن الماضى.. وعاد أثناء ثورة التحرير.. شارك فى الثورة بحكم عمله.. لم يكن مجاهدا.. لكنه كان مجاهدا بطريقة خاصة.. كان إسكافيا.. يخبىء أسلحة المجاهدين فى صندوقه.. يتحرك عبر شوارع وأزقة المدينة الكبيرة.. ثم يستقر بعد كل جولة.. فى مواجهة ثكنة عسكرية فرنسية.. لم يدخل مدرسة ولم يكن مثقفا.. ثقافته كانت شعبية.. من البشر.. فهو الزاد الذى يبقى الجسد حيا على مدار العمر.. د.نوال يرى أن

أكثر مهنتين تخرج منهما الثقافة.. «الإسكافى والحلاق».. فكلاهما يأنس إليه الناس فيتحدثون.. فهو مكان مهيأ ليكون ميكروفونا مفتوحا على المجتمع كله.. ذاك جهاد واضح.. وهناك جهاد آخر أكثر صعوبة.. جهاد الداخل.. جهاد الخفافيش فى الظلام.. فى مكان مغلق.. ذاك هو الجهاد الأصعب.. والذى رفعت لواءه وكتيبتها.. وزيرة الثقافة - خليدة تومى -.. تعى جيدا قيمة البشر.. البشر الذين صنعوا تاريخهم عبر مسرحهم وفنونهم.. ففى وقت مبكر كان المسرح العربى يتجه للترجمة.. نحى الجزائريون لأنفسهم منحى آخر.. عبر ما سمى «الجزأرة».. أى تحويل النصوص إلى الشخصية الجزائرية.. وفى بعض الأحيان.. كان لا يتبقى من النص سوى عقدته فقط.. فمسرحية توفيق الحكيم «الطعام لكل فم».. عندما تمت «جزأرتها».. لم يبق منها فى النهاية سوى.. فكرة الجدار الذى ينشع!! لذا فظهور المسرح الجزائرى لم يرتبط بالنخبة المثقفة.. ارتبط بالقاعدة الجماهيرية.. وكانت شركة الأسطوانات المسماة «جوموفون» نافذته التى طل منها.. فظهرت أسطوانات لأولى الاسكتشات المسرحية.. غنائية هزلية اجتماعية.. تقدم فى مقاهى الأحياء المزدحمة بالسكان.. ولهذا - بشكل أو بآخر - فهو مسرح تجارى يلبى مطالب الاهتمامات الشعبية وتقاليدها الفنية.. كان مسرحا مرتبطا بالغناء والفكاهة أيضا.. وقد ظل المسرح يسير فى درب هذا الأداء حتى فى المسرحيات الجادة فيما بعد.. ولأنه مسرح شعبى فقد ظل بعيدا عن رجال الأدب.. حتى عندما خاض بعضهم تجربة الكتابة المسرحية لم تنجح نصوصهم كمسرحيات.. وبقيت أعمالا أدبية صالحة للنشر فى الكتب والمجلات..

٦

عندما كتب عنها الكاتب المصرى الكبير الراحل «عبد الرحمن الشرقاوى».. مسرحيته الشعرية أو قل شعره المسرحى «مأساة جميلة» عام 1961.. لم يكن يكتب قصة امرأة على هامش الثورة الجزائرية.. أو يحاول غزل قصته حول امرأة لدواع درامية.. كان يكتب تاريخ المجاهدين من أجل الاستقلال فى هذه المرحلة.. ليس فقط فى الجزائر.. فى كل قطر سعى شعبه للتحرر.. فى إفريقيا والوطن العربى وأمريكا اللاتينية.. وليس الشرقاوى وحده ضمن الكتاب المسرحيين العرب الذى كتب على اسم «جميلة» أبدع السطور لتخليد الثوار فى كل مكان.. فقد استلهمها كتاب عرب كثيرين.. و «جميلة بوحيرد» الشهيدة الحية كما يحلو لمؤرخى المسرح تسميتها.. هى ثالث ثلاث جميلات شاركن فى بنيان ثورة التحرير.. الجميلات بوحيرد.. وبو عزة.. وبو باشا.. وهى أكبرهن سنا وأكثرهن شهرة.. إعتزلت الظهور منذ سنوات طويلة.. لكنها فى عام 2007 حلت ضيفة على المسرح الوطنى.. لأنها تعى جيدا قيمة المسرح الوطنى الجزائرى..

وفى الجزائر.. سألت عنها.. فقالوا لى: لا تثق بالصحفيين.. وترفض مقابلتهم.. قلت: لن اكتب سطرا.. قالوا لى: سوف نرتب لك زيارة.. لكن ليس كصحفية.. ككاتبة قصة.. ظللت طوال الأيام العشرة ألح فى المقابلة.. وظل من وعدونى – هم صادقين – يحاولون.. وفى النهاية فشلت المحاولة.. فقد كانت حالتها الصحية غير مستقرة.. تجاوزت الثمانين عاما.. عرفت أن زواجها من محاميها إبان الثورة قد انتهى.. لكنهم احتفظوا بصداقة 50 عاما.. وهو أمر يقدره جيدا الجزائريون.. وكلما عبرت ميدان «سى عبد القادر»..

أو صادفتنى صوره.. المنتشرة فى كل مكان فى العاصمة.. عقدت العزم على ترتيب مقابلة معها.. فى أول مرة أهبط وطنها الصعب..

7

فى شوارع منطقة وسط مدينة «البهجة» وهذا لمن لم يعلم.. كان اسم العاصمة الجزائرية قديما.. بسوقها الذى يسمونه شعبى.. كانت مسيرتى المفضلة بين كل لقاء .. أو عرض مسرحى أود حضوره.. الحوارات مع الباعة كانت شيئا ممتعا بالنسبة لى.. فى وطن لا تتعامل محلاته التجارية بالفيزا كارت.. أو أى نوع آخر ينتمى لهذه التكنولوجيا.. التى لا يعترف بها هذا الوطن.. أما أكثر الحوارات متعة حقا.. فقد كانت تلك التى تدور حول مباراة كرة القدم بين منتخبى مصر والجزائر.. فمثل هذه المواجهات تشغل الأمة الجزائرية لأيام وشهور قبل انطلاقها وبعد انتهائها.. كنت دائما أستخدم أكثر الطرق عندما أواجه بتحدى باسم «سوف نهزمكم هزيمة ساحقة».. فأقول: أنا لا أحب كرة القدم.. والذى يهزم يستحق التهنئة.. وكان غريبا على.. كما كان جديدا عليهم أن أجد جملة «صنع فى الصين» على منتجات تلك المحال التجارية.. أما آيس كريم العاصمة.. فكان متعة أخرى.. التعامل مع البشر فى الشوارع.. أمر فى غاية البساطة.. وفى غاية الأهمية أيضا.. عندما تنطق جملة واحدة.. تجد ترحابا شديدا يعقبه سؤال: أنت مصرية؟ وعندما اجيب نعم.. يكون التعليق.. نحن نحبكم جدا.. سمعتها كثيرا.. من رجال ونساء.. وكانت على بساطتها توحى بالكثير.. جملة لم أسمعها فى مكان زرته.. منذ زرت دمشق فى 2005.. جملة أحبها جدا.. ويفتقدها كل مصرى خارج وطنه.. التعامل مع البشر.. تلك هى المسألة.. التى وعاها «مصطفى كاتب».. الذى أمضى من عمره 12 عاما..

من 1974 وحتى 1986.. فى فترة فاصلة من تاريخ وطنه.. عمل كمنشط.. أو وسيط ثقافى بين الشباب.. فى المناطق الشعبية والمراكز الثقافية.. يخوض معركة التكوين من أجل مسرح المستقبل.. مهمته كانت صعبة.. حتى المعهد الذى أسسه كاتب عام 1964 باسم «المدرسة المسرحية الكبرى».. ثم تحول بعدها لمعهد عالى تم إغلاقه.. ثم إحراقه من قبل الجماعات الإرهابية.. تلك الجماعات وعت للدور المهم والمؤثر الذى تقوم به المسارح ومعاهد التكوين الفنى.. فكان قرارها باترا.. إحراق المكان.. إستهداف الفنانين والكتاب.. قطع الأواصر بين الشباب كمستقبل للوطن وكل روافد الحياة..

8

لا بد من فتح الأبواب حتى ولو جاءت برياح عاصفة أو غير مرغوب فيها.. نناقش ونتحاور.. وقد نفرز شيئا.. قد ننجح فى التعامل تلك الرياح.. أو يأتى بعدنا آخرون مستعدين للتصدى لأى رياح.. نفتح الأبواب لكل المبدعين.. وكل المبدعين العرب يلتقوا فى الجزائر فى مهرجان المسرح الوطنى.. عزيز خيون.. المسرحى العراقى الكبير.. الذى لم التقى به من العام 2002.. قابلته مصادفة علىّ باب مسرح باشترزى.. ليلة مغادرتى الجزائر.. وظل يعرف الجميع على قائلا: لم أرها منذ سبعة أعوام.. إنها تذكرنى بمصر.. وفى تلك الليلة.. كانت جامعة دول عربية مصغرة.. تعقد جلسة فنية طارئة فى منزل.. العزيز إحميدة عياشى.. من كل ألوان الطيف.. كل البشر.. يجلسون أرضا أو على مقاعد.. يرتدون بدلا رسمية أو جينز.. يأكلون معا.. ويغنون معا.. ويلقون بنكات يضحك لها الجميع.. رغم اختلاف اللهجات.. يشيعون البهجة.. فى عاصمة البهجة!!

الثالثة

«إقلاع الجزائر من مطار الأزمة»

ما بين ميناء الجزائر ومقر وزارة الإعلام.. والمسافة ليست بعيدة.. الكثير من التفاصيل والحكايات.. عن إعلام يمثل عينا على الوطن.. واقتصاد هو قاطرته التى تجر عرباته نحو المستقبل.. ما بينهما تجربة صحافة مستقلة تستحق التوقف.. ومشروعات استثمارية اقتصادية.. تواجه محاولات الجذب للوراء من ناحية.. وتسعى للوصل والوصال فى الداخل من ناحية أخرى.. وفى وقت كانت مدينة «البهجة» تستعد للقاء الفريق الوطنى المصرى.. فى كرة القدم.. للقاء نظيره الجزائرى.. كانت أيضا الأحاديث والحوارات.. حول انتخابات رئاسية استثنائية.. رفعت للتو أقلامها.. وجفت صحفها.. وفى مكان كان معقلا للخارجين عن القانون.. كان التحدى.. فى «الجزائر نيوز».. تلك اليومية التى روضت حيا عشوائيا خطرا.. ليصبح منبرا للفكر والرأى والقلم.. أما مفاجأتى حقا.. فكانت النسب المصرى الجزائرى القديم.. ومقبرة «كليوباترا».. ابنة الملكة المصرية الفرعونية «كليوباترا».. الشاعر

الروائى الوزير «عز الدين ميهوبى».. الروائى المسرحى الصحفى «إحميدة عياشى».. الإذاعى الوزير السابق «حمراوى حبيب شوقى»..

1

سألنى وزير الإعلام الجزائرى «عز الدين ميهوبى» باسما: هل زرت قبر «كليوباترا» هنا فى الجزائر؟ وقبل أن أجيبه.. وعلامات الدهشة مرسومة على وجهى.. بادرنى: إنها «كليوباترا سلينى».. ابنة ملكتكم «كليوباترا» المصرية.. قبرها هنا على طريق تيبازة.. يبعد 50 كيلو مترا شمال العاصمة.. سألته: ما هى قصة «سلينى»؟ قال: عاشت فى روما.. وفى الوقت الذى كانت فيه أمها فى مصر.. قادت قبائل «زاما» فى منطقة شمال إفريقيا الحرب بين الملك «يوبا» الأول وروما.. وكانت الأخيرة تدعم قبائل أقصى المغرب ضده.. إنهزم «يوبا» فى معركة «طيسوس».. فخرج إلى الصحراء ثم انتحر.. فاقتحم الرومان مملكته فى «زاما» وأخذوا ابنه «يوبا الثانى» معهم إلى روما.. التى كانت موطن قصة الحب التى نشأت بينه وبين «كليوباترا سلينى».. وكانت فرصة روما فى فى السيطرة على شمال إفريقيا بملك جديد له عقل رومانى وأصل بربرى.. تزوج «يوبا الثانى» من «سلينى» التى وضعت شرطا لإتمام هذا الزواج أن يحفر لها نهرا ووديا مثل نهر النيل.. ففعل.. وأقام لها قصرا فى الوادى الذى أسماه وادى «مازافران».. أى وادى «ماء الزعفران».. وبعد فترة قصيرة مرضت ثم توفيت.. فقرر تخليدها بأعظم ما فى مصر.. الأهرامات.. فبنى لها هرما دائرى الشكل حتى يكون مميزا قليلا عن أهرامات مصر.. يسميه «ميهوبى» الهرم الهارب من الجيزة.. قصة تلك المصاهرة المصرية البربرية القديمة.. كتبها وزير

الإعلام الجزائرى فى مسرحية.. أعجب بها المخرج الراحل يوسف شاهين.. وكان مقررا أن يقوم بإخراجها.. لكنه رحل قبل أن نبدأ..

كان مكتبه فى الدور الثامن لبناية أعلى تلة ضاحية مقام الشهيد.. وزير الإعلام الذى أتم منذ عدة أشهر عامه الخمسين.. ينتمى لبرج الجوزاء.. وأصحابه يتصفون بالذكاء واتقاد الذهن والفصاحة وامتلاك روح الشباب وتعدد المواهب.. وهى صفات مشاهير هذا البرج الرئيس الأمريكى السابق «جون كيندى» و «كونفوشيوس».. درس الفنون الجميلة والآداب والإدارة.. ثم عمل صحفيا رياضيا.. فمتوليا لإدارة الإعلام والبرامج المتخصصة فى التلفزيون الجزائرى.. وبين الفن والرياضة دخل البرلمان الجزائرى عضوا وعمره 38 عاما.. ثم عاد للكتابة والكتاب كرئيس لاتحاد الكتاب الجزائريين.. ثم وزيرا للإعلام والاتصال فى الحكومة الجزائرية.. فى مرحلة متغيرة بشدة.. عنوان التغيير فيها.. الإعلام..

2

كان جديدا على عينى أن أرى كل الصحف بقطع «التابلويد».. وكان جديدا أيضا نمط الكتابة.. تختلط فيها اللهجات المحلية بالفصحى.. وتستخدم ألفاظا فرنسية بشكل دارج.. بعضها متميز فى صوره وأفكاره.. لكنها جميعا تفتقر للعمل الصحفى الفنى.. أو ما نسميه «لاى أوت».. كان لافتا أيضا أن توقيع الصحفيين أنفسهم على موادهم الصحفية.. دائما بأول حرف من الاسم الأول.. ثم اللقب.. اعتقدت فى البداية أن الأمر نهج اختص به الصحفيون الجزائريون أنفسهم.. ولكنى عرفت أنه يعود لفترة «العشرية

السوداء».. التى كان فيها الصحفيون والكتاب والفنانون مستهدفين من قبل الإرهاب.. ثم استمر بعدها على هذا النحو.. أما ما تتناوله هذه الصحف فى معظم أبوابها.. فكان شديد المحلية.. بحرص تام على تغطية كل أخبار وهموم كل ولايات الوطن.. وهو أمر اتفقت عليه وسائل الإعلام اتفاقا غير متعمد أو معلن.. حس الإعلاميين فى الجزائر سبق آليات المهنة.. فالإعلام يحتضن الوطن ويربت على البشر فيه.. فأزمة سنوات الدماء.. كما يرى الجزائريون.. والتى انعكست على جوانب الحياة.. أمنيا وسياسيا وأخلاقيا واجتماعيا.. كانت فى حاجة لهذا التواصل والتربيت.. كانت تحتاج نظرة عميقة على الداخل أولا.. وقبل كل شىء.. فكانت أكثر من خمسين محطة إذاعية.. وخمس محطات تليفزيونية.. قادرة على المهمة المقدسة.. وكما يرى «ميهوبى».. فإن السعى لتحسين أدائها وشبكتها البرامجية وتطوير برامجها.. هى الهدف الأهم الآن.. فهذا «الإعلام الثقيل» يحتاج وقتا أطول لتطويره.. بعكس الإعلام المكتوب الذى يسير بسرعة.. هذا «الإعلام الثقيل» يواجه التحدى الداخلى.. حق المواطن فى إعلام وطنى.. المناطق التى تتحدث الأمازيغية مثلا.. لها حقها فى التواصل بلغتها داخل الإذاعة الوطنية.. وهو أمر موجود عبر أكثر من 16 محطة تبث بالأمازيغية بمختلف ألسنتها.. القبائلية.. الشاوية.. التاجية.. الطوارق.. الميظابية.. الشلوية.. الزناتية.. وعى الجزائريون الدرس السابق جيدا.. ووعوا أيضا لضرورة وجود حائط سد.. فى مواجهة أى ريح مستقبلية.. تهز بنيان الوحدة الوطنية.. وإلى ضرورة غلق نوافذ بعينها درأ لرياح غير مرغوبة.. وفى الفضائيات الدينية المزعومة خير مثال..

3

ليل نهار.. وصباح مساء.. تنهال على أسماعنا كل فتاوى النهى والتحريم والتجريم والترهيب.. عبر فضائيات الحلال والحرام.. مجهولة المصدر والتمويل والهوية.. وما يحلله أحد نجوم تلك الفضائيات.. من مرتدى العمامة أو العباءة أو الغطرة فى الصباح.. يحرمه آخر – منهم أيضا – فى المساء.. وصارت الدوامة التى يدور فيها المواطن العربى من المحيط إلى الخليج.. هى دوامة الحلال والحرام فى أمور واضحة بالضرورة.. ولا تحتاج وسيطا يحللها أو يحرمها بين العبد وربه.. وصارت تلك الفتاوى تجارة.. وصار ما يفعله أولئك الذين يفتون من رجال «البيزنس».. وفى غفلة من المستنيرين.. فى عقل المواطن العربى أمرا واقعا..

وفى بداية عام 2009.. قرر التليفزيون الجزائرى أن يدخل تلك المعركة بآليات صحيحة.. فأنشأ قناته الدينية الجديدة.. هدفها الوسطية.. مخاطبة الناس بلغتهم المتداولة.. وفكرهم البسيط.. تواجه تلك التى لا يراعى خطابها خصوصية بعض المجتمعات.. ولا انسجامه مع ثقافة وتقاليد هذا المجتمع.. بذور تنتهى زراعتها إلى تكفير المجتمعات.. ليس هناك معنى لتوحيد اللغة والفكر فلسنا جميعا واحد.. أما النقلة الحقيقية فى الآليات.. فبحسب «ميهوبى».. كانت فى القائمين على هذه القناة.. مفكرون وإعلاميون ودعاة جزائريون.. خريجو جامعة ومعاهد التكوين الدينية ممن لديهم اهتمام بالدين المعتدل.. واضعين خصوصية المجتمع الجزائرى ومناطقه نصب أعينهم.. هى قناة وليدة.. لكن صداها فى الشارع الجزائرى كبير.. هادئة تعلى الحوار

والاعتدال.. لا تخوض فى القضايا القديمة التى تجاوزناها من زمن.. هناك وعى جديد بدأ يظهر فى المجتمعات الإسلامية.. يسعى لمواجهة هذا الفكر التطرفى التكفيرى الذى لا يخدم أحدا..

4

الحديث عن التطرف والجماعات الأصولية.. وما حدث فى سنوات الدماء.. أمر لا يخلو منه حديث.. يجمع نخبة أو عامة.. شيوخا أو شبابا.. فهذا شعب لا يعترف بثقافة النسيان.. فهو بالنسبة للجزائريين ليس «نعمة».. ومن كان وراء هذه الأحداث.. أمر يختلف عليه الجزائريون حتى الآن.. سمعت الكثير من الحكايات.. من بشر شتى.. لكنهم جميعا وصلوا فى النهاية إلى طريق واحد.. أنه لا سبيل إلى الخلاص إلا بالمصالحة.. المعالجة الحكيمة التى استخدمتها الجزائر.. سياسة الوئام الوطنى.. التى فتحت الباب أمام المغرر بهم والذين ضلت بهم السبل للعودة إلى المجتمع.. مستندة لقيمة التسامح.. المبادرة التى أخذها الرئيس بوتفليقة من الشعب الجزائرى نفسه.. استفتى الشعب.. ثم استفتاه مرة ثانية فى المصالحة الوطنية.. والآن بقيت الأبواب مفتوحة أمام الجميع إلا على من يأبى.. وبقيت المواجهة بحزم مع كل الفلول الدموية.. الآن أصبحت رؤية الدولة واضحة عن نشاط هذه الجماعات وكيفية إدارتها.. هذه السنوات مكنت مختلف مصالح الأمن والجيش الجزائرى.. ومختلف جهات مكافحة الإرهاب من معرفة الأساليب التى تستخدمها هذه الجماعات.. لذا فالجزائر تحيا الآن مرحلة

ما بعد الإرهاب.. المجتمع يسير نحو إدارة شئون اقتصاده.. ترتيب البيت الجزائرى كما يبغى الجزائريون.. مرحلة الإقلاع من الأزمة إلى المستقبل..

5

لافتات تخطف نظرك أينما وليت فى مدينة البهجة.. صحف يومية وأسبوعية ومجلات شهرية.. وكلها خاصة أو مستقلة.. لكن المحطات الإذاعية هى فقط حكومية.. وكان بديهيا أن يثور التساؤل داخلى.. فأطرحه على المعنيين.. ألم يحن الوقت لفضائية جزائرية خاصة؟ وزير الإعلام ميهوبى.. يرى أن الوقت لم يحن بعد لفتح الباب فى المجال السمعى والبصرى للاستثمار الخاص.. فالإعلام الموجود - الحكومى - يحتاج التدعيم والتطوير أولا.. بينما يختلف فى الرأى - من نفس الأرضية - وزير الإعلام ورئيس التليفزيون السابق حمراوى حبيب شوقى.. فهو مع فتح المجال وفق قوانين وشروط الإعلام المعروفة عالميا.. يدرك جيدا أنه رغم وجود طبق فضائى فى كل بيت.. فهذا لا ينفى إطلاقا أن نسب مشاهدة التليفزيون الجزائرى الحكومى تصل أحيانا إلى 80٪..

.حمراوى حبيب شوقى.. محافظ مهرجان السينما العربى بوهران أو «الباهية» كما يسمونها.. كان وزيرا للثقافة والاتصال وعمره لم يتجاوز بعد الثلاثين.. بعد رحلة مع الصحافة المكتوبة.. والمرئية فى برنامج «وجها لوجه» ثم مديرا عاما للتليفزيون الجزائرى.. فمؤسسا لجمعية «الفنك الذهبى» وهى مؤسسة مجتمع مدنى رائدة فى الوطن العربى لتقييم الإنتاج التلفزيونى.. وتكريم نجومه وصانعيه.. ولأنه من البداية وحتى النهاية إعلامى.. فهو

يدرك جيدا أن تجربة الصحافة الجزائرية المكتوبة تحتاج لتطوير وتنظيم.. فى الجانب القانونى والتوزيع والانتشار.. بعد 20 عاما على أرض الواقع.. رغم أن بعضها حقق نتائج مميزة.. وقام بتمويل الفرق الرياضية.. والفريق الوطنى الجزائرى.. ومهرجانات مختلفة.. تجربة الصحافة الخاصة أو المستقلة فى الجزائر.. تجربة سريعة الحركة مقارنة بدول عربية أخرى.. وحتى مقارنة بمصر.. تحمل كل منها حكاية مهمة وراء خروجها للنور.. إحدى هذه الصحف «الجزائر نيوز»..

6

فى أحد الشوارع الجانبية.. القريبة من منطقة «ديدوش مراد».. كانت البداية.. شارع ضيق عبارة عن مطلع – شأن معظم شوارع العاصمة – بيوته المطلية باللون الأبي فى تواضع.. والبشر الذين يقطنونه طيبو الطلة.. منذ بداية الشارع.. وحتى وصولنا لمقر الصحيفة.. كانت لافتات «الجزائر نيوز» تخطف أبصارنا.. على أعمدة الإنارة.. أو على لوحة معدنية.. بلونيها الأبيض والأزرق.. وكانت عيون هؤلاء البشر الطيبون شاخصة مبتسمة باتجاهنا.. شأن أى بشر فى منطقة شعبية مصرية.. يشعرون بوجود ضيوف غرباء.. كنا مجموعة من الكتاب والممثلين العرب.. من فلسطين – عاصمة الثقافة العربية 2009 – وسوريا والجزائر والعراق ومصر.. جئنا حضورا لندوة تنظمها الصحيفة على هامش مهرجان المسرح الوطنى.. وشهودا على تجربة «إحميدة عياشى» الصحفى والروائى والمسرحى ومدير تحرير الصحيفة.. ومدير التحرير فى الجزائر منصب يعلو على رئيس التحرير!

وداخل مكتبه المطل على تلك البيوتات المتواضعة الطيبة.. كان بعضنا يرى نصف الكوب المملوء.. وبعضنا الآخر يصر على رؤية الفارغ فقط.. أطل السورى من النافذة قائلا: عيب أن تكون نافذة الصحيفة تطل على بلكونة موشكة على السقوط.. دون أن تتحرك بعمل شيء ما.. نظر له إحميدة من فوق نظارته الطبية قائلا: أتعلم قصة هذا الحى؟ نظرنا جميعا باتجاه إحميدة.. فتبادل مع الجميع نظرة هادئة.. قرأ فيها فضولنا جميعا لمعرفة القصة.. فقال: هذا كان حيا خطرا.. موطنا للخارجين عن القانون.. لا يدخله أحد سواهم.. كان قذرا لأن إدارة الحى كانت تخشى الدخول حتى لحمل مخلفات المنازل! نسبة بطالة مرتفعة.. إتجار فى مواد المخدرات المختلفة.. عندما قررت الاستقرار بالصحيفة هنا.. جئت وتكلمت مع الجميع.. اثنان من الحى يعملان معى فى الصحيفة كعمال.. وسيارات الصحيفة يقومون برعايتها مقابل أجر.. سمحوا لسيارات النظافة بالدخول.. بدأوا بطلاء المنازل وتجديدها.. عندما شعروا أن الكثير من الضيوف من الغرباء يأتون إلينا.. وتلك هى فكرة التغيير.. التغيير فى العمق.. ما أسهل أن نكتب عن مخالفة ما أو خطر ما.. ونشعر أن دورنا انتهى.. أنا لا أقنع بهذا.. أنا أؤمن بالتغيير الحقيقى.. التغيير فى البشر..

7

التغيير فى البشر.. هو الأصعب على الإطلاق.. نموذج لفت انتباهى.. منذ وطأت أقدامى أرض مدينة البهجة.. مشهد غير قابل للتغيير.. مباريات كرة القدم.. لا سيما تلك التى تكون مع المنتخب الوطنى المصرى.. أو أحد النوادى المصرية.. وهو مشهد فى سخونته وحدته يذكرنى بالحرب التى حدثت

بين السلفادور وهندوراس عام 1969 بسبب مباراة كرة قدم! غزت إحداهما الأخرى.. وانطلقت الطائرات من كل القواعد العسكرية.. واشتعلت الحرب ثم انتهت.. وعاد البلدان لممارسة اللعبة بشكل عادى.. بعد خسائر مادية وبشرية.. وعاد الجمهور يتابع تلك المباريات هادئا..

وفى عام 1990.. كتب وزير الإعلام «عز الدين ميهوبى» مقالا عنوانه «كليوباترا تغازل انطونيو» توقع فيه ذهاب مصر للمونديال.. فانفتحت النيران عليه من كل حدب وصوب! وحتى الآن مازالت مباريات كرة القدم بين التى تكون مصر طرفا فيها تحمل طعما ملتهبا حارا.. بغض النظر عن أهميتها.. أحد أكبر أركان هذا الالتهاب وسائل الإعلام المصرية والجزائرية.. إلا قليلا! هذه الحرارة أو السخونة لا تحدث فقط على صعيد الرياضة.. وإنما تنتقل إلى مواقع أخرى.. كالاقتصاد مثلا.. الذى يعتبره الوزير السابق.. حمراوى حبيب شوقى.. القاطرة التى تجر عربات الوطن كله..

8

الجزائر تخلصت من ديونها قبل الوقت المحدد منذ عدة سنوات.. فهى الآن بمنآى عن انعكاسات الأزمة المالية العالمية.. ولسنوات قادمة.. 150 مليار دولار لإعادة التنمية تعطى الفرصة للنهوض بالاقتصاد بشكل كبير.. الزراعة هى البترول الأخضر الذى سيبقى بعد البترول الآخر.. وبينما كانت البطالة فى عام 1931 ٪33.. أصبحت الآن 11 ٪.. 15 سدا فى الثمانينيات.. فى مقابل 80 سدا عام 2014.. وطريق سريع يفوق بعشر مرات ما كان موجودا منذ 20 عاما.. هذه الحرارة وهذا التفاؤل.. لم يمنع الجزائريين من الرحيل.. وهو ما

دفع «شوقى» منذ عدة أعوام لمناقشة الظاهرة.. فى برنامجه التليفزيونى وعنون الحلقة باسم «الحراقة».. الكلمة منقولة عن الفرنسية من يحرق.. وتستخدم عندما يحرق شخص الضوء الأحمر لإشارة المرور بسيارته دون توقف.. 70 ٪ من الجزائريين الذين يغادرون يموتون فى عرض البحر.. ووصل العدد فى العامين الماضيين إلى 4 آلاف.. فيصبح المغامر هو من يختار البقاء فى وطنه!

9

كانت الانتخابات الجزائرية الأخيرة قد حطت أوزارها.. لكن الحديث عنها كان متواصلا.. الحضور الباهت لشخصيات المرشحين فى مواجهة الرئيس «بوتفليقة».. وما بين السعى للحصول على الدعم المادى المخصص لكل مرشح.. أو إعلان الوجود.. كان تمسك الجزائريين بالرئيس.. وهو أمر سألت فيه الكثيرين.. للرجل سيرة ذاتية تاريخية.. عرف منذ كان عمره 16 عاما فى جبهة تحرير الجزائر.. وزيرا للخارجية ذا مواقف واضحة.. فهو الذى أدخل الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات للأمم المتحدة.. خرج من الحكم .. وظلم.. وأرخرجت أمه – رحمها الله – من بيتها بقوة الشرطة.. لم يصدر عنه تصريح فى يوم من الأيام ضد وطنه أو شعبه.. عاد إلى الجزائر بإرادة صلبة للبناء.. ووعد الشعب بثلاثة وعود: الأمن.. وقد أعاد الأمن للبلاد.. بالاقتصاد.. ونهض بالاقتصاد.. عودة الجزائر إلى المجتمع الدولى فى مكانها الذى يليق بها.. وأعادها.. تلك وعود منجزة.. دفعت الشعب للخروج يوم الانتخابات بنسبة 85 ٪.. المقاطعين لم تزد نسبتهم عنا 15 ٪ وهى نسبة عالمية.. و 5 ٪ لكل المعارضين.. بو تفليقة – بحسب حمراوى – لم يأت للحكم وحده.. أتت به جبهة الإنقاذ.. وحركة مجتمع السلم..التجمع الديمقراطى.. المنظمات النقابية

والطلابية.. وأبناء الشهداء ومنظمات المجاهدين.. هؤلاء هم الملتفون حوله.. هناك بوتفليقة وهناك آخرين.. لكن الجزائريين إختاروا بوتفليقة.. وتلك هى الخلاصة التى يردون بها على أى دعاوى بانتكاسة الديمقراطية فى الجزائر!

10

من نافذة غرفتى بالفندق المطل على الميناء.. كنت أرى نهار الجزائر المشمس.. وأرى البشر مدركون لمعنى الحياة.. فقد دفعوا ثمنا فادحا للحفاظ عليها.. رأيت البواخر وحركة نقل بحرى لا تهدأ.. ورأيت اليخوت الفخمة التى تشى بعلامات الثراء.. ورأيت البسطاء الذين تمثل الجلسات صباحا أو عصرا.. على المقاعد الحجرية فى مواجهة الميناء.. منتهى المتعة بالنسبة لهم.. رأيت الحب فى عيون البشر.. أكثر مما رأيت أى انفعالات أخرى فى خضم الحياة.. وكلما فتحت النافذة.. وتطلعت إلى هذا المشهد المتكرر.. الجملة الخالدة فى فيلم «نهر الحب».. «أفسحوا للحب مجرى فى حياتكم».. فالحب هو نهر الحياة الذى لا ينضب.